حـــازم ... !

للأستاذ عدلى طاهر نور

— ١ —

— حنان !

— ماذا ياحازم ؟

كانت حنان مستلقيـة على العشب تنظر إلى السماء بعينين حالمتين وقد شبكت يديها تحت رأسها لتتقى صلابة الأرض ، وسقط شعرها الفاحم متدرجاً على ذراعيها الناصعتين والخضرة الناضرة فأكسب تآلف هذه الألوان وجهها جمالا بارعاً ، وكان حازم مضطجعاً على جانبه بالقرب منها يعبث بالعشب وعلى شفتيه ابتسامة الذكرى .

مالت حنان برأسها قليلا لترد على نداء حازم بقولها : « ماذا يا حازم ؟ » فقال:

— هل تذكرين يوم تعارفنا ، حينما قدمت إليك فظللت ممسكا بيدك وقد بهرتنى صورتك وأذهلنى جمالك فلم يردنى إلى صوابى غير تخضب وجهك وتهكم الأصدقاء ؟ يا لها من لحظة لا أنساها ! فقد تاه الطرف فى صفاء تقاسيمك ، لا يستقر على جمال حتى يجذبه جمال آخر . وهل تذكرين ذلك اليوم ، حينما ابتعدنا عن الأصحاب فوق المقعد تحت الصفصاف ؟ كم بقينا طويلا فى صمت عميق ، هذا الصمت الذى يخدر الحواس وينشط المخيلة ولا يقطعه غير اختلاس النظر لينذى الخيال . وتلك اللحظة ، هل تذكرينها يا حنان ؟ تلك اللحظة التى تقابلت فيها عيناناً فحاول كل منا أن يحول نظره ولكنه ما استطاع . فقد شخص بصرانا وتخضب وجهانا من المفاجأة ، ثم ابتسمنا فكانت الابتسامة إذناً بالكلام .

أغمضت حنان عينيها تستعيد الماضى وقد أشرق وجهها بنشوة الذكرى ، وامتلأ صدرها بلذة الرؤية . وصمت حازم وعاد يعبث بالعشب ويستنشق النسيم الملىء بالذكريات ، وهاج قلبه بالحب فنطق يقول :

— لا شك يا حنان أن حبى لم يخف عليك . و ما فى ينبض بالعاطفة . ولكن هل تعلمين قدره ؟ إن تأسر الرجل بجمال خلقها أو حسن خلقها ؛ وأنت يا قد جمعت الجمال كله . ويزيد فى ولهى ما بك من سمو ساذج ي من القلب . فلست كمن شاهدت من النساء يتصنعن السم نظرة أو لفتة أو مشية ، فلا يعدو الأمر الظاهر . إن ما بك فضائل يا حنان يسحر لبى ويملك قلبى .

فاعتدلت حنان وعيناها تفيضان حباً ، وقالت وص يصوّحه الوجد :

— وأنت يا حازم . أما تعرف أنك سيد قلبى ؟ لست أ فصاحتك فأصف لك حبى ؛ ولكنى أشعر ... أشعر أنك شىء فى حياتى ؛ فطيفك يلازمنى فى يقظتى وأحلامى . و لأمرض ليعدك وأسعد بقربك . آه يا حازم إن حبى لك لعظ

— إن روحينا ياحنان قد امتزجتا ؛ فما من قوة تفرق بي أنا سعيد يا حنان . وما أستطيع أن أكتم سعادتى فانا أرد لكل ما حولى ، للشجر والطيور ، للقمر والنجوم . وأوحى إلى كل من يصادفنى فتنبسط الأسارير وتبتهج الأنفس . ما أ الحياة إذا ملأها الحب والسعادة معاً ... وسكت حازم فجأة بدت فى عينى حنان سحابة حزن انحدرت دمعاً . ولم يلبث أن صا

— حنان أنت تبكين ؟ بالله أما تفصحين ! فكم لمحت الشجن يكسر طرفك ويؤلم قلبى . ولكن غمرة السعادة جا فما كان ألى يدوم أطول من خفقة ، والآن أنت تبكين فما أستط صبراً . بالله يا حنان ما ذا بك ؟ حدثينى .

لم تستطع حنان أن تغالب الدمع فقامت تجرى وارتمت مقعد قريب تذرف العبرات . وأسرع حازم وراءها وجلس بجا يجفف دمعها ويخفف ثأرها : أنا آسف يا عزيزتى ؛ فما أردت أثير ذكرى أو أنكأ جرحاً . وإنما ظننت أن الافضاء بذا الصدر يرفع عن النفس الحمل . هيا يا حنان . انسى كل شىء و تفكرى فى غير حبنا وسعادتنا .

فأجابت حنان على الفور: « لا ياحازم ، يجب أن تعلم . فأنا ولكن البكاء غلبها فلم تنبس بغير شهقة . فمدت يدها إلى حقيبة وظلت تبحث فيها وهى لا تستطيع الكلام ولا تنقطع عن البكـ

حتى أخرجت (دبلة) ذهبية وضعتها فى بنصرها الأيسر . وكان حازم يتبعها بنظره مشدوهاً ، لا يعى ما تفعل ؛ ولكنه سرعان ما صرخ فزعاً : « أنت ياحنان . أنت ! » فأجابت بحزن عميق : « نعم ياحازم . تلك مشيئة القدر » وساد سكون طويل أثقله صمت الطيور كأنها أشفقت من التغريد على قلبين يتعذبان . ساد السكون فبدا صوت حازم المتصاعد ناجماً يرسل القشعريرة إلى البدن .

لمَ يا حنان ؟ لمَ تركتنى أتدله فى حبك ؟ لم هذه القسوة ؟ ثم أمسك بيدها متوسلا: « قولى إنك تمزحين . قولى إنك لم تتزوجى. قولى لى أى شىء غير ذلك » . ولكن أصابعه لمست الدبلة فجذب يده بشدة وابتعد عنها قليلا وهو ينظر إليها نظرة الحزن والغضب والحب الخائب .

واندفعت حنان تقول : « أنا شقية يا حازم . فلا تقس علىّ ولا تزد فى شقائى . آواه ! لو علمت كم قاسيت ، وصبرت حتى مل الصبر . أرهف الله حساسيتى إلى حد المرض فلم أنعم فى دنياى بسعادة . وكان شغفى بالمطالعة منذ فجر شبابى طريقاً إلى الشقاء ، فقد غذيت عقلى وقلبى بأعلى المثل وأجل الأحلام . فكانت صدمة الواقع قاسية وتبدد أوهامى مؤلماً. وغشينى هم من الناس فأخلدت إلى العزلة وانطويت على نفسى حتى أذوانى السقم وشفنى الهزال . وأزعج أمرى والدىّ ففزعا إلى الأطباء يرجوان لى علاجاً ، ولكن هيهات أن ينجع دواء الجسد فى شفاء النفس ، فقررا آخر الأمر أن يزوجانى . واستقبلت حياتى الجديدة تهدهدنى الآمال وتغمرنى الأمانى ؛ فقد كان قلبى يهفو إلى دار هانئة يرعاها زوج حنون ويهجها أطفال عزاز ؛ ولكن جدى العاثر كان يلاحقنى فكنت كالظمآى فى صحراء ، أنشد السعادة وهى سراب .

أحببت زوجى لطيبة أخلاقه ، ولكنه كان يقتل حبى باعراضه ؛ فقد طغى عشقه لعمله على كل عاطفة . وما كان يعنى بى أكثر من عناية الثرى بتحفة تجمل بهو منزله . والله أعلم كم حاولت أن أوجد لنفسى فى حياته أثراً ؛ ولكنه ساعده الله كان يعتقد أن سعادة المرأة أن تنعم بفاخر الزينة وأن تفوز بحرية التصرف . فنسى أن الزواج ألفة يوحى بها الحب المتبادل ، وأن العشرة الخالصة لا تتحقق بغير صيانة هذا الحب . نسى أن الزواج شرّع للصحبة المشتركة والتعاون الوثيق فتصفو الروح وترقى الحياة . نسى أن ملاطفة المرأة والتودد إليها ليس مقدمة للزواج فحسب ، بل عاملا حيوياً فى علاقة الزوجين . آه لو حاول الرجل أن يخبر زوجه فيحقق لها أحلام الصبا وسعادة الشباب ، إذن لأحبته العمر ولظل سيدها الأوحد وسلطان قلبها المطلق ، ولكن الرجل وا أسفاه لا يحاول فهم المرأة وإدراك حقيقة نفسيتها ، ثم ينعتها بالبرود والأعراض ، ولا يلبث الزواج أن يصبح واجباً يؤدى . وهكذا عشت مع زوجى لا أحبه ولا أستطيع أن أكرهه . عشت معه بقلب يغص بالخيبة والحسرة .

ولم يقف عذابى عند هذا ، ولم يغفل القدر عنى . ففقدت والدىّ واحداً بعد آخر . ففقدت معهما قلبين كانا يعطفان علىّ ويخففان عنى قسوة الحياة ، وشعرت باليتم يهصر قلبى والوحشة تفجع نفسى . ثم كانت صديقاتى ؛ فقد كن يرون لى بعضاً من حوادث لهن ليخففن عنى . فكان شعورى بهذا الفضاء الذى أحدثته النوائب فى نفسى يشتد وينتشر . ولم ألبث أن ضعفت يا حازم تحت إلحاح صاحباتى ، فانطلقت معهن ذلك اليوم إلى حيث قابلتك . فكنتُ أنا الزهرة الذاوية ، وكنتَ أنت القطر الباعث . وساقنى القدر فى طريق الحب فلم أفكر لحظة ، ولم أتب إلى نفسى إلا بعد أن أحببتك . ولم أقو على الإفضاء لك بزواجى ، بتعاستى ياحازم .

وغلبها البكاء فانقطعت عن الكلام . وصاح حازم وهو يكفكف دمعه : « مسكينة يا حنان ! »

— ٢ —

مضى كل منهما فى سبيله مكسور الفؤاد . وعادت حنان إلى عزلتها وقد حرك اليأس رماد قلبها وأهاج لهيب شجنها . وكانت تعمد ، حينما يشتد بها ألم الشوق إلى الذكريات تلتمس منها عزاء ضن به عليها العالم الخارجى ، فتصبح كصريع المخدر تقاسى بعد لذة قصيرة وسعادة واهية أشد الآلام . وكان أكثر ما يعذبها شعورها بما يكابد حازم من اضطراب نفسى بعد هذا الحادث ، ويأسها من حيل لموقفها البائس . فما كانت تستطيع أن تهجر زوجها لطيبة قلبه ، وقد همت بذلك خضوعاً لحبها الجارف لولا أن خشيت لوم حازم فانتظرت أن يخطو هو الخطوة الأولى واستسلمت فى انتظارها لحزن داهم وعزلة شديدة .

وعاد حازم وهو لا يفكر فى غير اعتراف حنان ، ورأسه يدق بالحقيقة القاسية ، وقلبه يخفق بحبه الشديد . وكان كل عصب فيه ينبض بقوة كأنه يصيح : إنها متزوجة ! ومضت أيام قبل أن يسكن هذيانه ويروق ذهنه . ثم لم يلبث أن اختلى بنفسه فى محرابه وهو يرتعد لجاجة قلبه لعقله . كم كان يود أن يفر فى هذه الساعة الحاسمة ، ولكنه كان يشعر بقوة خفية تدفعه إلى مكتبه

أخذ يراجع حديث حنان وهو يقطع الغرفة بخطوات واسعة وقد وضع يديه خلف ظهره وطأطأ رأسه لشدة التفكير. كان عقله الرشيد وتربيته القويمة قد حصنا نفسه؛ ولكن قلبه كان قويا بالحب ملتهبا بالشوق. فكان الصراع بين ضميره وعواطفه عنيفا. كان ضميره يثور تارة وقلبه يطغى أخرى، ونفسه بين هاتين القوتين حائرة معذبة.

كان يحدث نفسه قائلا: «ماذا دهاك يا حازم؟ كيف تخلد إلى هذا الوسواس فيحرضك على الشر، وتثار على هذا الحب فتسلب بريئا امرأته؟ كيف تقدم على هــــذا الأمر فتنقلب شيطانا يحث على المعصية ويهدم بيتا هادئا؟ كيف تحل رباطا مقدسا وتقطع صلة طاهرة فتحقر نفسك وتفقد عزتك؟ ثب إلى رشدك وعد إلى جهادك. فحذار حذار أن تستسلم لعواطفك. فالعاطفة المطلقة كالسيل، أوله انقضاض يجرف ويقتلع، وآخره نضوب وقحط. وقد وهبنا الله العقل لنقيمه سدا يحبس تلك القوة الطاغية وينظم تصريفها. إن حنان ليست لك يا حازم...»

ووقف حازم فجأة وضرب كفه بقبضته صائحا: «يجب أن تنساها». وتابع سيره وهو يكرر تلك العبارة بتؤدة ويقطعها ليوحى إلى نفسه معناها ويملى عليها إرادته. ولكن أنى لعقله أن يثبت ولم يكن أمر حبه مشكلة دارجة؟ فهو لم يكن يعرف الحب من قبل. أما وقد نهله فقد أصبح الأمر مشكلة حياته. فكان قلبه المضطرم يصهر عزيمته ويشوش منطقه، وحبه المتدفق يخنق ضميره ويذهب بصوته فلا تلبث نفسه أن تصيح:

«تباً لك ياحازم! مادمت عبدا لعقلك فقد تحرم الحياة ومتعها وتعرض عن الحب، فيطغى العقل وتنضب النفس ويفسد الذوق وتنقطع صلتك بالحياة. لا يا حازم. لا تفعل ذلك! إن حنان لك، فالأقدار لم تجمعكما عبثا. إنه نداء القلب فأنت تلبيه، وماء الحياة فأنت ترشف منه. وكيف يقبل عقلك أن يعيش زوجان بلاحب ويأتلف قلبان بلا تمازج؟ إن حنان لك يا حازم. ولك وحدك.

كان حازم يجد في حديث نفسه لذة عظيمة، ولكنها لذة يكدرها صوت الضمير الذي يأبى أن يخضع فيعود ويرتفع من الأعماق: «حذار حذار أن تسلك هــذا الطريق». فكانت نفسه كرمال الشاطئ بين كر الأمواج وفرها لا تهدأ ولا تستقر. كان حبه قويا، ولكن عقله كان يقظا وضميره حيا. ولهذا كان حزينا برما. فهو لايستطيع أن يعود إلى حنان، ولا أن يبتعد عنها

وبينما هو في عذاب اليأس والتردد، إذ فاجأ نفسه بهذه الهمسة: «مسكينة يا حنان!». وكان يكرر تلك العبارة ولايفطن بادئ الأمر إلى معناها. ولكن سرعان ما قفز من كرسيه حيث أقعده الأعياء، وهو يهتف: «نعم! مسكينة يا حنان» ألم ينطق بتلك العبارة من قبل عند ما قصت حنان عليه قصتها المحزنة؟ ألم تذرف حنان وتنذ دموع الشقاء بين يديه فأرمضت قلبه؟ إذن كيف يتركها تذبل وتتعذب؟ كيف يقتلها بالهجر وهو لم يقس قط؟ كيف لا يعطف عليها ويؤنس وحدتها؟ إن في حبه لها صداقة، والصداقة عاطفة تجمع بين القلب والعقل. أليس من واجب الصديق أن يعين صديقه؟

ملأت الشفقة نفس حازم بغتة. وقد أثارها الحب ليستعين بها على العقل؛ فما كانت هنا غير قناع لبسه الحب فجأة فشلّ العقل وأسكت الضمير. والحب قد يأتي بالمعجزات.

وخف حازم إلى حنان يتمتعان بسعادتهما السابقة فيركبان سيارته ويتنقلان بين الرياض، فتستلقى حنان على الأعشاب الغضة تنظر إلى السماء بعينين حالمتين، ويضطجع حازم على جانبه بالقرب منها، تعبث يداه بالأزهار ويشع وجهه بالغبطة.

— ٣ —

وحدث ذات يوم أن قام حازم وحنان برحلة من رحلاتهما العزيزة إلى ضواحي القاهرة، ودهمها الليل في طريق العودة. وكان الليل مقمرا، فأغراهما جمال الطبيعة بالبقاء حيث كانا على شاطئ النيل.

كان القمر يسيل رقة تلين الأبدان، وكانت أشعته تهبط على المياه كقبلة العاشق على كتف حبيبته فتسرى فيهـا رعشة لذيذة وتهتز لها اهتزازاً لطيفا. وكان هــذا الاختلاج يسحر الناظر ويهدهد عقله فيغوص في هذا المزيج من الأشعة والماء.

وكان السكون رائعـا يقطعه بل يزيده صفير الصرصور المتتابع فتؤثر وحدة الصوت المتواصلة في المرء، فتصيبه غشية هادئة ترفعه إلى عالم الأحلام، ويزيد نشوته عطر ثقيل من الزهور المختلفة ينتشر الى جسمه فيثقل تفكيره وأطرافه.

كانت الطبيعة تنشد نشيدها الأبدى في معبدها الساجى، وقد أطلقت بخورها العبق، ولبست حللها الفاخرة، فيتصاعد الى السماء تآلف من الأصوات والعطور والألوان، ينعقد سحبا رقيقة لازوردية رنانة تخلع على الأرض غموضا مقدسا، يحير البشر فيعتريهم الخشوع ويغشاهم الوجوم.

وكانت حنـان مستلقية على العشب ، وقد أكسبها القمر شحوبا عاجيا ليس فى الانسان ، وجمالا مبهما ليس على الأرض ولا فى السماء ، جمالا يتصوره الشاعر فى تخيلته ويعبده فى خلوته كلما تردد عليه وتراءى له . وكان حازم مضطجعا الى جانبهـا يقلب الطرف فى جمالها وقد سلبته الفتنة كل إرادة ، وأثار الوجد كل حواسه . وتحولت حنان بنظرها إليه فتلاقت عيناهما وشخص بصراهما ، وكان ينبعث منهما بريق ساطع متدفق لم يلبث أن هدأ ورق . وفى همس يقطعه الهيام امتزج اسماهما : حازم ! حنان ! والتقت شفتاهما فى قبـلة حارة طويلة . كانت عواطفهما كحمم البركان تصعد من الأعماق متراخية ملتهبة ثم تفيض فتنحدر بشدة كاسحة . وفى ذلك الوقت اختفى القمر وراء سحابة كثيفة كبيرة . وفى تلك اللحظة التى ينسى الانسان كل شىء غير أن الطبيعة حبته بقوة عاطفية جامحة ، فى تلك اللحظة التى تطغى فيها حرارة القلب على قدرة العقل ، فى تلك اللحظة لبيا نداء الجسد . إنهما من جسد ، والجسد ضعيف والهوى غـلاب ، فـكيف يعدمان الشهوة ؟ كان عقلها فى يقظتهما راجحا ؛ ولـكن الطبيعة خدرت ذلك الحارس، فتنفست الشهوة المـكبوتة ، وكانت تعمل فيهما خفية والعقل يحجبها ، فجهلاها حتى نمت واشتدت فتحركت وغلبت

وظهر القمر ومر أحد العسس يقرع بنعليه الطريق ، فاستيقظ العاشقان من حلمهما اللذيذ وتبينا أمرها مضطربين : وما أقسى أن ينقلب المرء من حال إلى آخر بلا انتقال . فاستولى عليهما الوجوم والحيرة ، وفرق الخجل بينهما لحظة طويلة قطعها حازم بعد جهد بقوله :

— إن الليل قد تقدم ، فدعينى أصحبك إلى منزلك .

ولم تجب حنـان بغير نظرة مبهمة ، وقامت تخطو وئيدا إلى السيارة ، وأدار حازم المحرك وسأل :

— أين تسكنين ؟

ولم يـكن حازم يعرف حتى ذلك الوقت مسكن حنان إذ كانت بعد كل لقاء تفضل أن ترجع وحدها . وأجابت حنان :

— فى الدقى ، سأبين لك الطريق .

— ٤ —

واندفعت السيارة إلى منزل حنان . فـكان حازم يشعر كلما توغل فى السير أن الطريق مألوف . ولـكن هذا الشعور لم يتعد طبقات نفسه الأولى فلم يلتفت إليه تماما ، حتى أشارت حنان بالوقوف . وبينما هو يودعها وقع نظره على منزلها فثبتت عيناه فى محجرها وتملـكه فزع شديد ؛ فصاح بصوت قلق يكاد يسمع :

— أنت ... تسكنين هنا ؟

فأجابت حنان وقد راعها حاله :

نعم ! ولـكن ما ذا بك ؟ هل رأيت شبحا ؟

ولم يجب حازم وانطلق إلى مسكنه بأقصى سرعة . كان همه الأول أن يبتعد عن هذا المنزل ولـكن صورته باتت تلازمه وتزيد فى عذابه . فـكان يهمس : رحماك يا إلهى . فما أقسى العقاب !

كان منزل صديقه أحمد، فـكانت حنان إذاً زوج صديقه ...

وكان أحمد لا يجتمع بأصدقائه كثيرا لشغفه بالعلم وانقطاعه له ، ولـكنهم كانوا يـكنون له الحب والاحترام لدماثة خلقه وكرم طباعه . وهذا هو حازم ، بالقسوة القدر ، يكتشف أنه كان يخون صديقه فينقض عهد الصداقة . كان يخونه فى عرضه . والعرض كيف يلأم صدعه ... آه . لو استمع إلى صوت عقله !

كان حازم يفـكر فى ذلك فيحز الألم فى نفسه . كانت الصدمة عنيفة أودت بكل عاطفة أثارها الحب . فما وجد لفعله عذرا ولا لضميره ردا . وساد ضميره وقام يؤنبه بعنف ويلاحقه بشـدة ، ونفسه قد خلت من كل توازن يقيه شر الاختلال . كان صوت الضمير يتبعه وصورة صديقه لا تفارقه ؛ فلم يستطع البقاء فى مكانه وخرج يهيم على وجهه فى الطرقات . ولـكن الصوت كان يطارده فيعدو المسكين هربا منه ، فيملأ أذنيه ، فيسرع فى الجرى حتى يصرعه التعب ، فلا يلبث طويلا حتى يبـــدو له وجه صديقه يشخص إليه فى حزن وأسف ، فيعود إلى الجرى ليسقط مرة بعد مرة حتى خر على الأرض مغشيا عليه .

وأشرقت الشمس وقامت الطيور تعلن قدوم الصباح ودبت الحياة فى الـكون ، ووقف الشرطى يتأمل جسما طريحا وانحنى يهزه ليتبين أمره ؛ فانتفض النائم وجلس لحظة ورأسه بين يديه ، ثم نظر إلى الجندى المستفهم نظرة بلهاء ولم يلبث أن نهض مسرعا وهو يهمهم بكلام لا يفهم .

إنه كان حازما الرقيق . صرعته الصدمة فاختل عقله ، وأصبح يكفر عن خطيئته . كان ملـكا فى وحدته فسولت له النفس أن يهبط إلى الأرض ؛ فتدهور من العلياء ، وعاد آدميا تسوده الغرائز الشهوانية والرغبات الدنيئة ، واقترف الخطيئة فاستحق العقاب ؛ والسماء لا تغفر لملك هوى .

نجدى طاهر نور